جماليات الصورة في الشعر الحساني
الباحث حسن حميم
المغرب

مقدمة :

دائما ما كان للصورة في الخطاب الشعري مكانة مرموقة في تكوين شعرية النص، فعن طريقها يتم التمييز بين الخطاب التواصلي العادي والخطاب الفني بفعل زعزعتها للمألوف، وقدرتها على شحذ اللغة بالدلالات والرموز والإيحاءات العميقة التي لا طريق إلى اختزالها في أي قراءة محتملة. وحظيت الصورة الشعرية باهتمام بالغ لدى الباحثين، الذين اعتبروها تعريفا للشعر، فهذا أوكست شيلجل يقول: "الشعر تفكير بالصور"[1]. ويستبدل الناقد الروسي بلينسكي لفظة (الشعر) بلفظة (الشاعر)، فيقول: "الشاعر يفكر بواسطة الصور"[2]، ويرى س .د. لويس أن "المنبع الأساسي للشعر الخالص هو الصورة "[3]. ويذهب روجي كايو إلى أبعد من ذلك حين يقول: "في الشعر الحديث أصبحت القصيدة أضحية في سبيل الصورة"[4].

مما لاشك فيه أن الشعراء الحسانيون أبدعوا في تشكيل صورهم الشعرية وتنويعها، فتوسلوا في تجسيدها ذهنيا في مخيلة القارئ من خلال الإشارات الذهنية، واستعملوا الاستعارة والكناية والتشبيه والمجاز المرسل، مما جعل أشعارهم تحمل شحنات دلالية أضفت عليها لمسات جمالية كونية، وقربت أفكارهم ووضحتها ونوعت مقاصدها، وقدمت العالم الذي يرونه بمختلف مستوياته الفكرية إلى الملتقي. وسنقوم بعملية استقراء لمتون شعراء حسانين من أجل التأمل في الصور الشعرية التي وظفوها في أشعارهم :

أ– الصور البلاغية:

1– التشبيه:

يرى مصطفى المراغي أن التشبيه هو إلحاق (المشبه) بأمر(المشبه به) في معنى مشترك وجه الشبه (بأداة) (الكاف وكأن وما في معناهما) لغرض فائدة[5]. وللتشبيه علاقة وطيدة بالخيال، إذ يعمل عمل السحر في إيضاح المعاني وجلائها، وينقل النفس من الشيء الذي تجهله إلى الشيء الذي تعلمه[6].وفي هذا الصدد يقول عبد الله بيدة:[7]

وَنْتَ شِبْلْ اَفْطَنْ مَنْ شْبَلْ وَالشِّبْلْ ابْنُ ذَاكَ الأسَدْ

يشبه الشاعر الممدوح بالشبل لأنه يجمع بين القوة والشجاعة، فلأداة حذفت وحذف أيضا وجه الشبه على سبيل التشبيه البليغ . ويقول محمد السويح[8] :

نْدَلْ بِفْلَيَّحْ شَفْتْ كَاصْ افْلَانَة كِيفْ ارَدَانْ

فالشاعر هنا يعترف برؤيته لامرأة لها جمال ملتصق بها ويتواصل في الالتصاق بها كتواصل قطرات المطر وتتابعها، وهذا التشبيه تتوفر فيه كل الأركان من مشبه، ومشبه به، وأداة، ووجه الشبه، على سبيل التشبيه المرسل المفصل به. ويقول أيضا [9] :

امَنْ الحَكْتْ فَالْعَيْنْ الحَكْ فالخَوْفْ اشْرَاتِيتْ

شبه الشاعر عزة المسمى أمين وما بلغته عنده من مكانة بما بلغه شرتات في الخوف وشخصية شرتات في المتخيل الشعبي الحساني اشتهرت بالخوف والجبن والغباء والمكر ... وذكر وجه الشبه وحذفت أداة التشبيه على سبيل التشبيه المؤكد المفصل.

2- التمثيل:

ويقصد به "تشبيه وجه منتزع من متعدد أمرين أو أمور"[10].

يقول الشاعر جمال بن الحسن في غرض النصيحة والتوجيه:[11]

لَاتْعُودْ ابْلَا مَرْدُودْ خَايَبْ مَانَكْ صَايَبْ

حَاظَرْ يَلْتَاحْ العُودْ عَنَّكْ كِيفْ الغَايَبْ

نصح الشاعر صديقه بمجموعة من النصائح القيمة كأن يعمل كي يعطي عمله نتيجة، وألا يكون بدون مردود، ويكون خائبا وغير مصيب، وبالتالي حاضر في مجلس، وهناك من ينوب عنه ويقوم مقامه كأنه غائب. ويقول الشاعر حسين بوغريون[12] :

وَاصْبَحْ احْمَ وَابْرَدْ اَخْيَامْ كِيفْتْ لَخْيَامَاتْ

لقد شبه الشاعر خيمة الفقير المملق بعد أن تم منحه بعض الصدقات والهبات والهدايا بخيام الميسورين، فيكون وجه الشبه بينهما الحركة وكثرة الطبخ والكرم والنعم، والأداة هي (كيفت) أي الكاف. والتمثيل يوضح لنا المعنى مع الإيجاز والاختصار، لذا وظفه الشعراء الحسانيون ليختصروا في تقريب بعض الصور من ذهن القارئ من خلال الإيجاز في العبارات والألفاظ واستغنوا عما لا يقتضيه المعنى والوزن . والتمثيل كما يقول المراغي: "يكسب المعاني منقبة، ويرفع قدرها ويجعل لها في القلوب هزة وارتياحا، فإنك إذا تأملت حالك وحال المعنى قبل التمثيل وبعده ترى بونا شاسعا ومساقة لخلاف متسعة"[13].

3- الإستعارة:

يعرفها المراغي: بقوله "هي اللفظ المستعمل في غير المعنى الموضوع له لمناسبة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينه تصرف عن إدارة المعنى الأصلي[14]، وتعد الاستعارة أكثر الصور الشعرية تواجدا في المتون الشعرية بحيث تضفي عليهم جمالية ودلالية بديعة. يقول جمال بن الحسين:[15]

جَان رَجَلْ هَوْنْ فَمْعَادْ جَايَبْ عَيْنِيهْ ايدَاوِيهُمْ

فالاستعارة هنا ظاهرة في الشطر الثاني (أحضر عينيه ليداويها)، فكأن عينيه شيء يحمل ويذهب به، وهي استعارة مكنية حذف منها المشبه به. ويقول الشاعر حسين بوغريون[16] :

وَامْنَيْنْ تْشُوفْ امَيْدِي جَاتْ مْبَيْنْ اخْشَامْ ازْكِي

فمنطقة (اميدي) لا تتواجد بين اخشام جمع خشم أي أنف، بل تقع بين جبال شبهت بالأخشام لعلوها وحدتها، فحذف المشبه (الجبال) وصرح بالمشبه به (الأخشام) على سبيل الاستعارة التصريحية. ومنها أيضا[17]:

وَهُما وَزَادْ الفِيهُمْ مَقْصَدْ اَلشَّكْرْ وَتَجْبَرْ تَفَلْوَاتْ

مَناهْ وَالحَكْ امْبَنْدْ شَافُوهْ عَلَى زَيْنْ الصِّفَاتْ

والمقصود هنا أن الأشطر أو التلفوات ليست لها أمنية لتجدها، فشبهت التفلواتن التي وجدت موضوعا قيما نتناوله (مدح القبيلة) بالإنسان الذي وجد أمنيته التي كان يتوق إليها، وهي استعارة مكنية حذف منها المشبه به. ونلاحظ أيضا وجود استعارة في الحك (مْبَنْد)، حيث استعارة الشاعر كلمة (امْبَنْدْ) من قطعة الثوب البند، والتي يشهرها أهل العروس من أجل الترحيب بأهل العريس في تقاليد الزواج الصحراوي، وأضفاها على الحق لتفيد الظهور والإبانة والوضوح ... وهي استعارة مكنية حذف منها المشبه به (البند) وأبقي على كل شيء من لوازمه (امبند)، وقد فطن العديد من البلاغيين إلى فضل الاستعارة وقيمتها ومنهم الإمام عبد القاهر الجرجاني، والذي يقول: "اعلم أن الاستعارة... أمد ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة، وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة، وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها وتحصر فنونا وضروبها "[18].

4- المجاز:

يعرفه الخطيب القزويني أنه: "هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح مع قرينه عدم إرادته ... والعلاقة غير المشابهة "[19]، كمجموع علاقات الجزئية والكلية والحالية والسببية. ونمثل له بقول محمد السويح [20] :

صَمْدَتْ رَامَ الله والخَلِيلْ والقِطَاعْ ودَيْرْ يَاسِينْ

فالذين صمدوا هم الفلسطينيين الذين يقطنون برام الله والخليل وقطاع غزة ودير ياسين، وقاوموا ضد الاحتلال الإسرائيلي وبطشه، فذكرت المدن والمقصود هو أهلها. ويقول عبد الله بيدة [21] :

عَاقَلْ حَكْ أَلَا كَطْ اشْكَارْ وَجْهَكْ أَمَامْ ألمسْلِمِينْ

يمدح الشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم بميزة العقل وبالخلومن العيوب التي من شأنه أن تنقص من منزلته أمام المسلمين، فذكر وجه الرسول عليه الصلاة والسلام ليدل الجزء على الكل. ويقول حسين بوغريون[22] :

حَدْ بْعَيْنْ شَافْ الكَرْبَانْ وَالكَتْمَ وَاعْكِيدْ الدّيدَانْ

وَالكَرْبَانْ وَلَكْرَعْ اكْرَانْ يْحجَلّ لَبْيَرْ وَلَبْتَيْتْ

فالنظر إلى المناطق اكَربان والكتمة واعكَيد الديدان والكرعان ولكراع مباشرة، تحرك القريحة وتذكر بلبير ولبتيت أي بنشد الشعر، فالعلاقة تبدوهي الجزئية بحيث اكتفى الشاعر بذكر لبير ولبتيت باعتبارهما بحرين من بحور الشعر الحساني ليدلا عليه. ومنه أيضا[23] :

عَفَاكُمْ يَا لّبِيكُمْ نْتَصَرْ الدَّينْ كَبْلَتْ البْحَرْ

البَارَدْ وَفَكُولَخْ وَانْدَرْ عَفَاكُمْ يَا لْبِيكُمْ غَيَاتْ

الشَّرَفْ ولَكْبَايلْ مَغْفَرْ جَعْفَرْ وأولَادْ الزَّوَيَاتْ

فالقبائل المشار إليها هنا هي (الشرفة، مغفر، جعفر أولا الزويات)، وهي ليست من افتخرت وبالغت في مدح الركيبات بل أفرادها من قاموا بذلك، فالمشاعر ذكرها ويريد أفرادها.

5- الكناية:

وهي أن تتكلم بشيء وتريد غيره، ويعرفها الخطيب القزويني بأنها "لفظ أريد به لازم معناه[24]، واستعملها الشعراء الحسانيون كثيرا، لأنهم كانوا أحيانا يطلقون اللفظ ويعمدون إلى لازمه عرفا. ونمثل على ذلك بقول حسين بوغريون[25] :

وَاصْبَحْ احْمَ وَابَرَدْ اخْيَامْ كِيفَتْ لَخْيَامْ

فكلمتا احم وابرد هما كناية على الحال الميسور، حيث كثرة الطهي، فيسخن صاحب الخيمة ويبرد من كثرة ما لديه من أشياء يطبخها، فهذا يحتاج إلى تسخين والآخر إلى تبريد وهكذا. ومنه أيضا[26] :

وَالْمَلَكْ الثَّانِ بِثْمَنْ حَالْ ذَاكْ اَلْمَلْكْ امَّالُ فَانِ

فالملك في الشطر الثاني كنايه على الدنيا ومتاعها ونعيمها والتي بلا شك فانية. وكذلك[27] :

عَادْ وَجْهُ فِيهْ النَّذِيرْ ذَاكْ مَعْنَ يَالنَّاسْ اكْبِيرْ

فكلمة النذير هي كناية عن الشيب الذي ينذر بكبير السن ودنوالأجل. ومنه أيضا [28] :

عَنْدْ امْنَيْنْ اذْرَارْ بْكَارْ وَذْرَارْ أَهْلْ أَحْمَدْ دَمَانْ

وَلَشْرَافْ لعْرَبْ لَحْرَارْ خَلاَّو لَعْنَايَ وَالشَّانْ

فمعنى خلاو لعناية والشان، أي تركوا عزة النفس والشأن العظيم كناية عن الذل والهوان الذي آلت إليه بعض القبائل الحسانية بسبب الاستعمار. ويقول عبد الله بيدة [29] :

حَامْدَكْ لَعَادْ لَبَّاتْ دُونْهُمْ لَكَسَ وَخَلِيلْ

فمعنى (دونهم لكس وخليل) أي بينهم وبين مكان تواجد أبيه مسافة كبيرة لبلوغه وطريق شاق من الأودية والأحراش، وهي كناية تفيد البعد والمسافة الفاصلة، والكناية في هذا التركيب عن صفة. وكذلك[30] :

كَعْدَ عَيْنِي فَسْمَ وَنَبْ تَشْوَاشْ اخْلَاكْ

فكلمة عيني فسم كناية عن كثرة التفكير والشرود وهي كناية عن صفة أيضا. وكذلك قوله [31] :

عَنْهُمْ هُومَ بَلْدْ أَهْلْ اَلمْدْ لِلشْعَارْ وَالنَّهْوَالْ

عبارة "أهل المد" تعني كناية على حسن الضيافة والكرم والجود، فقد كنى به عن صفة لازمة لمعناه، وهي كناية عن صفة كذلك. ونجد مثلها عند محمد السويح [32] :

اغْلَظْ الرَّاصْ اتْكَلَّفْ لَحْصَ مَاتَّهْنَ وَاتَسْكَنْ بَيْدِيكْ

قَوَاعِدْ الدِّينْ الخَمْسَة وَالتَّوْبَ اتَعْرَفْ عَنْ نَاشِيكْ

معنى (غَلْظْ اَلرَّاصْ) تعني عظمة النفس، وهي كناية عن العجرفة وحب الذات (اتْكَلَّفْ لَحْصَ)، وهي كذلك كناية عن استعراض العضلات والتباهي بالقوة، والشاعر ينصح صديقه بترك تلك الصفات والتحلي بالتواضع والتمسك بقواعد الإسلام الخمسة والتوبة إلى الله عز وجل. ويقول أيضا[33]:

امَنْ كَلْ ابْلَدْ اتْمِيلْ عْلِيكْ وَأَنْتَ مَا كَطْ اكْدَيت النَّارْ

والكلام هنا موجه إلى المطار الذي كان خاليا حتى حلت بجواره محبوبة الشاعر، فأصبحت الوفود تأتيه والطائرات تحط به، والضيوف تتوافد عليه والمطار لم يسبق له أن أوقد النار، وهي كناية عن البخل، وغياب الضيوف والزوار مما يجعل المكان خاليا لا نار تشعل فيه، وهي كناية عن صفة، واستعملت هذه الكناية كثيرا في الشعر العربي . وغالبا ما كان العرب يتلفظون أحيانا بلفظ لا يريدون منه معناه الذي عليه بالوضع، بل يريدون منه ما هو لازم له في الوجود، بحيث إذا تحقق الأول تحقق الثاني عرف بمعنى "استكثار للألفاظ التي تؤدي ما يقصد من المعاني وبها ... يزينون ضروب التعبير ويكثرون من وجوه الدلالة "[34].

ب– الصور الوصفية:

اعتمد الشعراء قديما على الوصف، فقد صوروا كل ما وقعت عليه أنظارهم من مظاهر الطبيعة والخيل والصحراء. وشكلت الطبيعة الصحراوية بالنسبة للإنسان الحساني مصدر إلهام له لما فيها من رمال وفيافي وشمس لافحة وسحاب، ومطر وسكون ملهم عجيب، وهضاب وسهول... فسحركل ذلك الشعراء الحسانيون وألهمهم في استعمال صور جمالية وفنية شهدت لهم برهافة الإحساس، وجمال الوصف والتصوير وروعة الإبداع، إلى جانب الطبيعة استقى الشعراء الصحراويين أوصافهم ووصفهم وتصويرهم في مواضيع أخرى كوصف المرأة وجمالها وترفها ومعارك الرسول صلى الله عليه وسلم.

1– وصف الطبيعة

ينشد محمد السويح أشعاره واصفا بعض المنظر الطبيعية التي تعرفها الصحراء في فصل الربيع[35] :

وَارَعَ رَاعَ ذُوكْ اشْكِيكِيطْ الكَرْكَازْ أذَاكْ الكَحْوَانْ

اتْفَتَحْ وَرَاعِ زَادْ الْكَيطْ التَّرْفَاسْ أَفْضَلْ البْطَنَانْ

اذُوكْ اجْمُوعْ اتْرَاجَعْ شْرِيطْ مَنْ فَنَّانْ وَللَّ فَنَّانْ

تَرْعَ رَيْظَ فِيهْ خَلِيطْ لَّغُواخْلِيطْ امْنْ الخَرْفَانْ

يَصْبَحْ وَرُوحْ اعْلَ مُحِيطْ الفَرْكَانْ الَّ فَالْحَسْبَانْ

عَادْ ازَادْ انْوَالْ لَعْزِيبْ يَرَاو أَيرَاو امْرَاكِيبْ

انْوَاعَمْ وَبَانْ اتْخَثْرِيبْ لَمْحَاصَرْ فَالرَّبْطْ اكِطْيَانْ

تَنْوِيمِلْ وَبَانْ فَاشْطِيبْ — الوَادْ افَفَّامْ الخَرْفَانْ

اوَادْ اكَجْكَالْ الَمْحَاجِيبْ — وَابْنْ احْمَادْ ارُوصْ أوَغْرَانْ

احُكُمْ الخَطْ احُكَمْ وَاكَرَيَّبْ — الحَفْرْ ذَ لَكِيرَا مْلَانْ

مَنْ لَخْظَارْ اَلْحُكْنَاهْ اِغِيبْ — لِزِيكْ امْلَانْ امَنْ الفَرْكَانْ

معناه :

وانظر ها هي زرابي / من الزهور والأقحوان

تتفتح وانظر إلى جمع / الفطر في ظل الجبال

وها هي جموع تستمتع إلى شريط / الفنانة أو فنان

وتشاهد رياضا فيه خليط / من الجديان والخرفان

يصبح ويمسي على محيط / الخيام المتواجدين بمنطقة الحسبان

وأصبحت تشاهد المراعي / وترى الإبل

ناعمات، وتظهر تجمع / خيام في مناطق (الربط وكطيان)

وتنويميل " وتظهر في "شطيب / الواد" وفي "افام الخرفان "

وفي "واد اكجكال" ولمحاجيب / و"ابن لحماد" و"روص اوغران"

وما حيط "بالخط" و"اكريب / ومنطقة "ازيك" مليئة بالخيام.

2- وصف المرأة

ونمثل له بأبيات شعرية لعبد الله بيدة [36] :

مْدَعْجَاتْ اَفَّيْمْ الشَّيْطَانْ — مَعْلُومَاتْ اَفَّيْمْ التَّحْفَالْ

فِيهُمْ واحد تْبَرْ لَذْهَانْ — لخر تْحَيِّي زَادْ الدَّلاَلْ

فَمْ اَشْوَيْ اَمْدَبْدَبْ سَبْحَانْ — الْخَلْقَ وَذَاكْ اِيدِّيكْ الحَالْ

لَحْيَ وفْلَيْجْ والنِيبَانْ — وَكْمَامَ زَيْنَ ولَتَّقْبالْ

وخْنَافَرْ بَاطِ اَمْعَ عَيْنَانْ — مَنِي بَاطِلَ يَلْكْبُورَالْ

يصف الشاعر المرأة الصحراوية بصفة عامة، كونها دائما ما تثير الإغراء وخبيرة في شؤون الزينة وارتداء الحلي، ومن النساء الصحراويات ما إن نظرت إليهن أحسست بانتعاش القلب ومنهن أيضا من يجبرن الخواطر وهذا سر أودعه فيهن الخالق سبحانه، ثم

يعدد الصفات التي تعجبه من جمال الأسنان التي بها فلج، والشفتين الممتلئتين، والأنف والعينين الرائعتين. والكلام هنا موجه إلى صديق الشاعر وهو عسكري.

خاتمة :

أدرك الشعراء الحسانيون مدى أهمية الصورة البلاغية التقليدية القائمة على التشبيه والاستعارة والكناية، لما لها من دور بارز في تصوير الأحاسيس الدفينة فلا تكاد تخلو أي قصيدة منها . بذلك ارتقت القصيدة الحسانية الى الصورة الكلية بعدما استجمعت خيوط نسيجها من الصور الجزئية، الأمر الدي يضفي على القصيدة جمالا يأسر روح المتلقي وأضحت الصورة من أبرز الأسس الجوهرية الثابتة التي يقوم عليها بناء صرح النص الشعري الحساني، حيث شكلت ملحما فنيا جماليا يساهم في تصوير الحالة الانفعالية لذات المبدع الشاعرة.

الهوامش:

[1] محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ص 08.

[2] المرجع نفسه، ص 08.

[3] Jean molino , introduction à l'analyse linguistique de la poésie , Ed P.U. F.Paris 1982 , P170

[4] ساسين عساف، الصورة الشعرية، (الوجهات نظر غربية وعربية)، دار مارون عباد، بيروت، ط 1985، ص 59 و60.

[5] أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة : البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، ط 1، 1982، بيروت، ص 213.

[6] السالك بوغريون، تقنيات التعبير في الشعر الحساني، ص 127.

[7] رواية من الشاعر، العيون 31 يناير 2008.

[8] محمد السويح، ديوان ربيع الشباب ص 113.

[9] المرجع نفسه، ص 114 و115.

[10] أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 268.

[11] الشاعر سيدي أحمد الرحالي، العيون 13 ماي 2008.

[12] رواية شفوية من الشاعر، العيون 30 غشت 2009.

[13] أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 269.

[14] المرجع نفسه، ص 307.

[15] الشاعر سيدي أحمد الرحالي، العيون 13 ماي 2008.

[16] رواية شفوية من الشاعر، العيون 30 غشت 2004.

[17] رواية شفوية من الشاعر، العيون 30 غشت 2004.

[18] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 48.

[19] الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت، ط 1932، ص 294 و259.

[20] محمد السويح، ديوان ربيع الشباب، ص 143.

[21] رواية شفوية من الشاعر، العيون 31 يناير 2008.

[22] رواية شفوية من الشاعر، العيون 30 غشت 2004.

[23] المرجع نفسه.

[24] الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ص337.

[25] رواية شفوية من الشاعر، العيون 30 غشت 2004.

[26] رواية شفوية من الشاعر، العيون 30 غشت 2004.

[27] المرجع نفسه.

[28] المرجع نفسه.

[29] رواية شفوية من الشاعر، العيون 31 يناير 2008.

[30] رواية شفوية من الشاعر، العيون 31 يناير 2008.

[31] المرجع نفسه.

[32] محمد السويح، ديوان ربيع الشباب، ص 59.

[33] المرجع نفسه، ص 59.

[34] أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 368.

[35] محمد السويح ديوان ربيع الشباب، ص 88 و89.

[36] رواية شفوية من الشاعر، العيون 31 يناير 2008.